الفصل الختامي

البعد عن ثقافة الاعتذار كعائق لعيش الدّيمقراطية

نسمع كثيراً من يقول: ليس عيباً أن يخطئ الإنسان، ولكن العيب أن نستمر في الخطأ... وهنا مربط الفرس في لغتنا الدّارجة؟

ما هو الاعتذار؟ وماهي أشكاله؟ وماهي روابط المقدرة على الاعتذار بسمات الشخصية؟

هذا ما سوف أحاول البحث فيه، والذي أجد العمل على موضوعه أمراً بات من دواعي العلاجات النفسية الاجتماعية في بلادنا، حيث كثرت الأخطاء حتى أضحت كارثية بحقّ الكثيرين والأخطر بحق البلد بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

الاعتذار: هو معنى من أهم المعاني والتّعابير التي تضفي على الحديث معنى إنسانياً، مما يزيد من درجة السموّ والرقيّ في التعامل مع الآخرين، والاعتذار يمثل سلوكاً ثقافياً إيجابياً، لأنّه يسهم في خلق مناخ من التّراحم والتّسامح والقدرة على تجاوز الصّعاب.

والاعتذار كقيمة إنسانية نبيلة لا يمكن أن تترسخ في ثوابت السلوك ما لم تكن هذه القيمة تعيش بالفعل داخلنا كأفراد وجماعات، لأن القدرة على الاعتذار تحتاج إلى تربية معينة، وقدرة على نسيان النفس والشعور بتقدير واحترام الآخرين، إذ ليس صعبًا أن يكتسب الإنسان صفة الاعتذار، ويجعلها طبعاً أساسياً في شخصيته، في حال كانت البيئة مهيئة لذلك، كون القدرة على الاعتذار غاية يمكن الوصول إليها من خلال التربية المعنية بتنمية الإحساس بالآخرين والتفكير في مشاعرهم وآلامهم وأحزانهم.

من الأمور المعيقة للاعتذار أذكر:

أولاً: التكبر والغطرسة:

فالإنسان الذي يشعر أنه غير قادر على رؤية الحقيقة طالما أنها لا تصب في مصلحته، ويتكبر عن الاعتراف بالواقع ويرفض أن يتعامل مع الناس من منطلق المصداقية والمنطق، هو إنسان يصعب عليه أن يقدم الاعتذار عن أخطائه، كذلك الإنسان الذي يحتقر الآخرين، ويستخف دائماً بما يقدمونه وما يدافعون عنه وما ينحازون له من مبادئ وقيم، لا يمكن له أن يتقدم لهم باعتذار لو صدر منه ما يؤذيهم كونه يريد أن يتغافل عن وجودهم، فلا يرى حسناتهم.

ثانياً: توقيت الاعتذار ومدلوله:

تَخير الوقت المناسب لتقديم الاعتذار عن الأخطاء يعدّ فعل ناجع، وقد يكون إعطاء الطرف الآخر الذي يستحق منا الاعتذار فسحة من الوقت حتى يستطيع أن يفرغ طاقة الغضب والانفعال في داخله، فيهدأ ثم نبدأ في تقديم الاعتذار، لأن عدم اختيار الوقت المناسب للاعتذار سيجعله بلا جدوى وغير ذي تأثير...

ثالثاً: كيفية الاعتذار:

يقول "جاك لاكان": الرجل هو الأسلوب، واستناداً إلى مقولة "لاكان" هذه أقول: لا تكفي النوايا الحسنة للتراجع عن أخطائنا، إذ لكي يتم تخطي الأفعال والسلوكيات الخاطئة، ولاسيما المتصلة بالآخرين من حولنا، يلزم اختيار الكيفية التي نقدم بها هذا الاعتذار، وذلك بعد تعدد وسائل الاتصال الاجتماعية في حياتنا المعاصرة وإمكانية الوصول للآخر، وهذا الأمر هو بحد ذاته قد يعرقل خطواتنا للاتصال بمن نريد، فالاتصال الهاتفي مرات أو عبر البريد الإلكتروني بمنزلة إهانة جديدة للشّخص الذي نعتذر له، إما لمكانته الخاصة أو لطبيعة الموضوع نفسه الذي يستدعي تقديم الاعتذار حوله بصورة مباشرة.

فمازال هناك من يعتبر أن الاعتذار تقليل للشّأن الشّخصي لمن أخطأ، على حين أن الاعتذار منطقياً يمثل قوة وثقة بالذات، لأنه دلالة لعقلانية التفكير من كون الخطأ لا يمكن أن يعالج بخطأ فمن يسيء يخطئ، وعدم استدراكه لخطئه من خلال الاعتذار يكرس استمرار الأخطاء... من هنا يُعدّ الاعتذار دلالة للقدرة على المواجهة للمواقف التي تلفها صعوبات حياتية مع الآخرين قربوا أو بعدوا...

فإن تمعنا بدلالة سلوك الاعتذار نستدل على أن الاعتذار يمثل تقويماً لسلوك سلبي سلكناه في لحظة قد تكون لحظة غضب وانفعال لزمن سابق قصر أو طال، من حيث إن العودة للماضي لإعادة ترتيبه يظهر ذلك مدى شجاعة الفرد في مواجهة الواقع... من هنا نجد تبايناً لأشكال الاعتذار بين الناس تبعاً لسوية ثقافاتهم، وخبراتهم وإدراكهم لدواعي وعواقب عدم الاعتذار عن أخطاء سادت سلوكهم، وسببت ضغينة لغيرهم... فنجد مثلاً من يسرع للاعتذار، من خلال مراجعة مباشرة عند وقوع الخطأ غير المقصود أو السّلوك السّلبي كما في حالات الغضب.

ونجد من يتعمد الاعتذار بعد مراجعة للذّات، فاعتذاره قد يتأخر نوعاً ما، من كونه يحدث بعد مراجعة للموقف، ومحاكاة النّفس.

وبالتالي قابلية الوقوع بالخطأ تكون أقل حدوثاً عند من يراجعون أنفسهم، ويراقبون سلوكهم.

الشّكل الثّالث للاعتذار بين الناس يُظهر لدى من يعانون من ضعف الثقة بالنّفس واضطراب في الشخصية، والذين سلوكهم العام يتجلى بالتّردد وعدم القدرة على مواجهة المواقف... ويمكننا تبعاً للتّوصيف الأخير أن ندرج المغرورين والمتكبرين في عداد الاشخاص الذين يعانون من صعوبة الاعتذار، رغم إدراكهم تماماً لحجم أخطائهم، نجدهم يكابرون ويمتنعون عن الاعتذار، ويطالبون الآخرين بتقبلهم كما هم، والعكس غير وارد عندهم.

العلاقة بين المقدرة على الاعتذار ومهارة الحوار

يشير مصطلح الحوار إلى درجة من التّفاعل والتّثاقف والتّعاطي الإيجابي بين الحضارات التي تعتني به، وهو فعل ثقافي رفيع يؤمن بالحق في الاختلاف إن لم يكن واجب الاختلاف، ويكرس التعددية، ويؤمن بالمساواة.

وعليه فإن الحوار لا يدعو المغاير أو المختلف له إلى مغادرة موقعه الثّقافي أو السياسي، وإنما يدعوه لاكتشاف المساحة المشتركة بينهما وبلورتها، وبالتّالي تبعاً لمفهوم الحوار يكون الاعتذار مستساغاً عند الأشخاص الذين يمتلكون مهارة الحوار، هناك مثل انكليزي يقول: "نتحاور أو نتقاتل" لأنّ ثقافة التّسامح لا يمكن أن تقوم إلّا على الحوار، ليثبت الفرد عبر الحوار قوة ذهنيّة، ومن ثم يستدرك أخطاءه من خلال تبيان الحجج المنطقية ليكون بذلك الاعتذار قوة من كونه يربط الأمور مع بعضها، ويستنتج الخطأ المستهجن منها، ولذلك يأتي سلوك الاعتذار هنا وكأنه قوة وليس إذلالاً...

ما هي الحدود المنطقية لكي يعتذر المسؤول؟

في مقالة لطيفة للكاتب محمد سلماوي تحت عنوان (لن أزور اليابان) كتب أنه كان في زيارة لليابان لإلقاء محاضرة وأثناء استقلاله لأسرع قطار في العالم المسمى بـ "قطار الطلقة Bullet train" الذي تشبه سرعته سرعة طلقة الرّصاص، ما بين طوكيو والعاصمة القديمة كيوتو.

يقول وقفت على رصيف القطار بصحبة صديقي الياباني، حيث كانت تذكرتهما تشير إلى أن مقعديهما سيكونان في العربة الخضراء وللعلم اليابانيون يطلقون الألوان على درجات القطار، فلا يقولون عربة الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة وإنما العربة الخضراء والحمراء والصفراء، أشار إليه مرافقه الياباني أن يقف في المكان المخصص على الرّصيف لباب العربة الخضراء وفي الموعد المحدد بالضبط وصل القطار، وجاء باب العربة الخضراء في المكان المحدد له مع فارق

بضعة سنتيمترات من حيث يقف صاحبنا، فقال صاحبنا مداعباً صديقه الياباني وفي نفسهِ حرقة على فارق التقدم بين اليابان وعالمنا العربي لاسيما أنه لم يزر بلادنا العربية من قبل فقال له: كيف يقف القطار بعيداً بضع سنتيمترات وليس أمامي تماماً، كيف يُسمح بتلك الفوضى؟ لم يكن يتوقع أن الشاب الياباني لم يفهم تلك الدعابة فلقد كست وجهه الحمرة خجلاً، وأخذ يتأسف لما حدث مؤكداً أن هذا لا يحدث إلا نادراً، ووعد بأنه سيخطر المسؤولين حتى لا يتكرر ذلك ثانية، ويكمل: في الرحلة التي دامت أقل من ثلاث ساعات ظل يجيء ويروح للتحدث مع العاملين الذين جاؤوا واحداً وراء الآخر ليعتذروا له عما حدث وحين وصلا إلى كيوتو، وجد مدير المحطة ينتظره بنفسه على الرصيف ليقدم له هو الآخر اعتذاره، عما حدث في محطة طوكيو، ومؤكداً أن ذلك لن يحدث ثانية، اختتم الكاتب هذا الموقف بتأكيده: لصديقه الياباني (أنها مزحة) صديقه الذي بدا متعجباً وفغر فاه في دهشة! قائلاً: لماذا الاعتذار من قبلك لي؟ فأجابه كاتب المقال إنه كان يمزح، كون سلوك التأخير، مسألة عادية جداً بمقاييسنا العربية، وهي يمكن أن تحدث في أي مكان! فقال له صديقه الياباني ولكنها ينبغي ألّا تحدث في اليابان.

قد يكون في عالمنا العربي هذا الأمر ضرباً من الخيال، وقبل الاعتذار أترانا نستطيع معاتبة أحد المسؤولين، وقبل ذلك كله هل يمكننا أن ننسب له خطأ كون مسؤولنا لا يخطئ أصلاً؟!

وتتوارد التساؤلات: لماذا المسؤول الياباني يعتذر إن أخطأ؟ ولماذا يستقيل إن أخفق؟ وماذا يا ترى يصنع الياباني لو كان الأمر أكبر من ذلك؟

وبالتعريف للمسؤول هو من يخطط لسير الأمور بعناية حتى يتجنب الأخطاء وحتماً الاعتذار، فالاعتذار يعدّ أمراً غير مستساغ للشخص الجاد بأن يمارسه باستمرار، إذ هو علامة مؤشرة على عدم تخطيطه، وتحكمه الجيد بأمور مسؤولياته.

ويمكننا أن نستمر في المزيد من التساؤلات حول تبادل المواقع بين مسؤولينا ومسؤولي اليابان، فلو كان طرق التعليم وإخفاقاته تحدث في اليابان، كيف كان اعتذار مسؤول التعليم يا هل ترى؟

وأيضاً ماذا يفعل مسؤولو اليابان، لو كانت الأنفاق والجسور تبدأ مشاكلها قبل أن يبدأ تشغيلها؟ كيف تراه اعتذار مسؤول البلدية؟

لو ولو مئات المرات سنظل نثيرها، ولكن تبقى النتيجة واحدة دوماً والمتمثلة بالحسرة، وعلى رأي أحد الظرفاء لو كان ما يحدث عندنا يحدث في اليابان لأصبحت اليابان من دول جامعة الدول العربية!

وأختم في معرض الحديث عن حالنا واليابانيين، بذكريات عشتها في جامعة دمشق كنت حينها طالبة دراسات عليا، وكنت أعمل كموجهة تربوية في المعهد المتوسط للكهرباء في عدرا، أذكر ذلك لأني أجد هذا التفصيل مهماً لتوضيح فكرتي، وفي هذه المرحلة كان لي صديقة يابانية عرفتها من خلال ترددي الدائم على مكتبة الأسد الوطنية في دمشق لإجراء الأبحاث المطلوبة في مقررات دبلوم الدراسات العليا حينها، كان اسمها "جونكو" صبية جميلة ونبيهة والأهم جادة، كنت أتردد على المكتبة عادة بين الساعة الرابعة والثامنة مساء بشكل شبه يومي، وكانت "جونكو" تأتي من الصباح وحتى المساء وهي تقرأ في كتب اللغة العربية وتتبحر في فصول كتب لم أسمع بها إلا منها، في أحد المرات أتيت وكان عندي صداع ورشح وزكام، وكان بادياً عليَّ الإرهاق، قالت لي تلك الصديقة أنت مرهقة جداً عليك أن تذهبي وترتاحي وغداً صباحاً تأتين مثلي في العاشرة فيكون لك متسع أكبر من الوقت، قلت لها غداً عندي شغل ويصعب أن آخذ إجازة حيث كان لطلاب المعهد امتحان الفصل الأوّل، وكانت من مهامي في التوجيه أن الأسئلة يضعها المهندسون من المدرسين في المعهد لديَّ في المكتب، وأنا من سوف يشرف على توزيعها، والتأكّد من أن الظرف كان مختوماً أم لا يوم الامتحان لأية مادة مقرر لها الامتحان، ومن المعهد كنت أتوجه الى الجامعة في أوتوستراد المزة

حيث كان حضور المحاضرات إلزامي، ومن ثم إلى مكتبة الأسد مشياً إلى ساحة الأمويين، "جونكو" حينها لم تكن تعرف تفاصيل كثيرة عن حياتي، ولكن بعد ذاك اليوم باتت شديدة الاهتمام بي، فمرات كانت تحضر لي معها سندويشة صغيرة من البطاطا المسلوقة والبقدونس وقليل قليل من قطرات الزيت... تكرر ذلك مرات، وكانت دائماً تسألني كيف عملت اليوم؟ وأبادلها السؤال أيضاً، كانت "لجونكو" عبارة ترددها لي دوماً: أنت اليوم أعطيت للإنسانية، شكراً لك، وأنا أستغرب كلامها هذا، إلى أن مرَّ بنا يوم وجدتها حزينة غير راضية فسألتها ماذا بك يا عزيزتي؟ فأجابتني لقد تأخرت فلم أصل إلى هنا إلّا بعد الواحدة ظهراً، لا أعرف كيف أضعت وقتاً فارغاً عندما زارتني بعض الفتيات في المدينة الجامعية... ولم أقدر على الانسحاب نظراً لمودتهن، ولكن كنت غير مرتاحة، هذا هو المحزن لليابانيين إضاعة الوقت! و"جونكو" صديقتي نموذج خَبِرْته عن قرب...

وبالعودة لأزمة الحوار في بلادنا يمكنني القول إن: ثقافة الحوار التي نعاني من عدم إدراجها في معيشنا، ولاسيما في حياتنا المعاصرة حيث المشاعر والوجدانات تبدلت، ويأتي ذلك كنتيجة طبيعية لضعف ثقافة الحوار المتولدة عن تقصير جميع مؤسسات المجتمع في إرساء التربية الحوارية المتأسسة على الشّراكة مع الآخرين في كل تفاصيل الحياة، فهناك بعض التصورات والمفاهيم المغلوطة، التي أسهمت في تغييب الحوار عن ثقافة المجتمع بدءاً من المناهج التعليمية، التي واظبت لفترات طويلة على أسلوب التلقين والاعتماد على الذاكرة لا على التحفيز الذهني وتطوير التفكير المنطقي المبدع.

إن تفعيل التربية الحوارية، تُعدّ حاجة ماسة في الحياة العصرية ابتداءً بمؤسسة التربية الأولى (الأسرة) وانتهاءً بمؤسسات الدولة بلا استثناء، إذ يتحتم عليها تفعيل الحوار وتشجيعه ليصبح سمة عامة، وقبل إصدار القرارات والقوانين، وفي التعامل مع أصحاب الرأي الآخر، فالحوار لا ينتقص هيبة ولا ينقص سلطة، بل يزيدها قوة وشرعية، وعمراً مديداً بالفعالية ونجاح دورها. إن الممارسات التّقليدية

في المعاملات، بدءاً من البيت والمدرسة والمجتمع تؤدي إلى السّلبية، ومن هذه الممارسات يمكن ذكر:

– عدم التربية على الحوار وسيادة الطّرق التّسلطية.

– عدم منح الفرد فرص التّصرف، والتّدخل لحل مشكلاته والمساهمة في اتخاذ القرارات والعمل على تنفيذها.

– غياب الجرأة في مواجهة المشكلات المطروحة أمامنا داخلياً، لأن عدم تأهيل وتدريب أبنائنا على الحوار، يؤدي بهم إلى رفض الآخر، مثلما يُرفض رأيهم داخل البيت والمدرسة وفي الحياة الاجتماعية، ومن ثُم عدم الثقة بالنفس وبقدراتها، وسيادة عقلية المؤامرة والإحباط عوضاً عن عقلية الإرادة والإنجاز والفاعلية والمشاركة.

وتبعاً لهذه الممارسات لا يمكن تصور حوار من طرف واحد، لأن بديهيات الحوار أن يكون بين طرفين، وعندما يصبح الحوار حديثاً من طرف واحد، فهو يفقد أبسط قواعده. ومن هنا يجب أن يكون الحوار سعياً من جانبين، وليس من جانب واحد، لأن مقصد الحوار مع الآخر لا يعني أن أقول له ما أريد، ولكن أن نصل معاً إلى صيغة لما نريد، وإذا تحول إلى استجابة لمطالب طرف واحد فهو يدخل في نطاق الوصاية والهيمنة والتبعية وفهمكم كفاية، إن من خواص سلوك الهيمنة نكران الأخطاء أو بالأحرى عدم الاهتمام بها، فكيف يمكن للاعتذار أن يحصل؟ فثقافة الاعتذار يلزمها حتى تترسخ قائمة من التغيير، ولاسيما تغيير المواقف والاتجاهات تجاه الانتقاد وتجاه حرية الآخرين وتعبيراتهم حولنا، والانتباه لمساحة العدول عن آرائنا في موقف يتبين أن هناك ردات فعل غير خافية على سلوكياتنا ممن حولنا، ويبقى التساؤل مطروحاً بقوة لدي: هل يمكن اعتبار ثقافة الاعتذار منهجاً تربوياً مؤثراً؟ كون نتائجه مضمونة الأثر.

هل يوجد طريقة إلى حياة الكثيرين، ولهم الغلبة في كل الأمور في بلادنا؟ هذا الرهان لن يتحقّق إلّا عبر سياسات تربوية حصينة واعية لمشاكل الحياة العصرية وأيضاً متيقظة لحاجات الشّباب وكل أفراد الأسرة وفقاً لمرحلتهم...

التربية هي التي عليها المسؤولية الكبيرة والمشروع العظيم الذي لا مجال للمساومة على مدى تأثيره على الأمة ككل، لم يعد المربي قادراً على أن يديرها بأدوات بسيطة ومن طرف واحد، خاصة في هذا العصر المليء بألوان المحفزات وأصبحت الأبواب فيه مشرعة للولوج إلى الشّيهوات والشّيبهات بكل سهولة، كما صار المربي والمتربي يقفان أمام تحديات كبيرة تقاوم هويته وعقيدته وتشهر سلاحها في وجه قناعاته بكل ما أوتيت من قوة، ولأن الأحوال تغيّرت إلى هذا الحدّ فإن على المربي أن يكون مرناً بالحدّ الذي يجعله متواكباً دونما أن يخل بثوابته، وبالقدر الذي يجعله مؤثراً فاعلاً وبقوة في رعاية وتوجيه هذا الجيل الجديد، بحيث يسمح له بالانطلاق نحو الحياة وفق أطر وحدود تضمن له التّوازن والمرونة.

إذ لم يعد مستساغاً أن يمارس المربي أسلوب الفوقية، أو طريقة الإملاء والسيطرة، لأن أفق المتربي أصبحت أكثر اتساعاً بحيث تعلو وتبتعد عن هذه الأدوات وتجعلها تفقد فاعليتها بل قد تلغيها وتقضي عليها بالزوال، تماماً كماء النهر الذي إن بنيت أمامه سداً صلباً تحول إلى طوفان يهدم السد بل ويرتفع فوقه، وعليه فإن المربي لا بدّ أن يمارس دور التربية بذكاء.

التربية التي ترعى ولا تتحكم والتي تكتشف الطاقات والمواهب، فتسمح لها بالنّمو، والتربية التي توجه، لا التي تتسلط وتحاور باحترام للاختلاف ومن دون بث الفوقيّة أو السّطوة على الأجواء التي تجمع المربي مع المتربي.

التربية الذّكية، التي تحترم المتربي وتحفظ للمربي والمتربي حقوقهما وتنظر للمتربي على أنه طرف مشارك وأساسي في التربية فتفسح لقلبه وعقله وروحه الاختيار بقناعة وطاعة لله لا بعبودية للبشر...

وهي المرونة الحكيمة التي تضع الكلمة والإشارة والفعل في أماكنها وأوقاتها المناسبة وتصوغها في إيحاء يؤثر في المتربين. وهي بذلك تنأى عن الأنانية والمبالغة والالتواء عن القيم، تتكئ على الإخلاص في العمل والتعامل الاجتماعي

وتتحصن به... مبتعدة عن منطق الحظ والحظوة، بالتعامل مع أدوات العصر والانفتاح عليها من باب منافعها، والتحصن ضد مفاسدها.

كل ذلك بلغة العصر الواضحة الصّادقة، ومن خلال كل أركان العملية التربوية (المربي – المتربي – وسيلة التربية – مخرجات التربية) السبيل الوحيد للإنتاجية والإبداع...

فإذا ما أدرك المربون ذلك بتعمق ورؤية مستبصرة... خفّت بذلك الضّغوط وقلت المخاطر واتضح الهدف وتوحد الاتجاه وتوالت النجاحات.. وخفت بذلك عبر آليات الثّقافة النّفس تربوية الحديثة عوائقنا في السّير بالتّحول الدّيمقراطي لمؤسساتنا وتفاعلاتنا الاجتماعية، ومن جراء ذلك يكون البناء الاجتماعي للفرد والجماعة يسيران بتوازن واندماج لا بهيمنة وقهر، وبالتالي ضياع وتردّ في اللحاق بركب الأمم نحو التّحضر، والانفتاح بالأذهان نحو لغة العلم والمنهج المنطقي السّببي في الحياة.

ولا أجد أبلغ من قول "جاك لاكان" ختاماً لمؤلفي هذا لتعطي خلاصة دالة لما أردت البحث فيه عبر مبحثي هذا حول معوقات بلادنا في عيش الفكر الديمقراطي سلوكاً عملياً في حياة الأفراد والمؤسسات، يقول "جاك لاكان" المحلل النفسي المحدّث لفرويد بقراءاته العبقرية عبر استدلالاته اللغويّة وكناياتها، للوصول إلى كنه اللاوعي برؤية أبعد مما وصل إليها الرائد التحليلي الأول "فرويد":

"إذا كان التّحليل النّفسي قد ظهر في هذا العصر فليس ذلك إلّا لأن موضوعه هو موضوع العلم في الذات، فما وراء التحليلات العلمية لتكوين الإنسان من بيولوجية وكيميائية وجينية، تبدو الذات المتمثلة في الرغبة، بنية تميز الإنسان بخصوصية ويعجز العلم عن إدراكها"..

فمعرفتنا بذاتنا هي المنطلق لكل تغيير وخير نسعى إليه...